ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا[1] بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ[2] وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[3] (٥٩) ﴾

و«تلك» إشارة إلى المكان الذى عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا لمؤنث ، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين «عاد» المكان ، و«عاد» المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٥٩) ﴾ فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم .

و«عاد» إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات التى عاشت فى المكان ، فإذا أشار سبحانه بـ ﴿تلك﴾ فهى إشارة إلى الديار ، والديار لم تجحد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٥٩) ﴾ [هود]

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهى الأمور العجيبة الملفتة للنظر التفاتاً يوحى بإيمان بما تنص عليه .

---

(١) جحد الحق يجحده جحوداً : أنكره ، وهو يعلمه . وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها . وجحد الآية : كفر بها . قال تعالى : ﴿ .. ولَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٢) جاءت (رسله) هنا بصيغة الجمع ، لا المفرد . قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٣) : «يعنى هوداً وحده ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ..(٥١) ﴾ [المؤمنون] . يعنى : النبى ﷺ ، لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ، وإنما جمع هذا لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هوداً والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل» .

(٣) الجبار : المتكبر . والعنيد : الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣٧٣] .

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود ؛ بالله الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التى فى القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتى مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولاً من عند الله تعالى ، وهى المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التى يريدها الله سبحانه بمنهجه لضمان صحة حركة الحياة فى خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحوداً بإعراض [1] .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ..(٥٩) ﴾ [هود]

وهود عليه السلام هو الذى أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو المعنىُّ بالعصيان هنا ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ [2] النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ..(٨١) ﴾ [آل عمران]

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل رسول يُرسَل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) الجحود لا يتأتى إلا عند إغلاق القلب وشرود الفكر وضعف النفس .

(٢) الميثاق والموثق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ..(٧) ﴾ [المائدة] أى : عهده الذى عاهدكم عليه وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/ ٣١٩].

﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ... (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

فهم قد انقسموا إلى قسمين ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [1] (٥٩) ﴾ [هود]

أى : أن هناك مُتَّبِعاً ، ومُتَّبَعاً .

والمقصود بالجبار العنيد هم قمم المجتمع ، سادة الطغيان والصنف الثانى هم من اتبعوا الجبابرة .

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفِرَق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضالٌّ فى ذاته ، وهناك مُضِلٌّ لغيره .

والمضل لغيره عليه وزران [2] : وزر ضلاله فى ذاته ، ووزر إضلال غيره [3] .

أما الذين اتُّبِعوا فلهم بعض العذر ؛ لأنهم اتُّبِعوا بالجبروت والقهر ، لا بالإقناع والبينة .

---

(١) العنيد : صيغة مبالغة ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم] القاموس القويم صـ ٣٩٠ جـ ٢

(٢) الوزر : الحمل الثقيل والذنب ، وجزاء الذنب وعقوبته ، والهم والكرب . قال تعالى: ﴿ ... فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) ﴾ [طه] أى : حملاً ثقيلاً هو ذنبه أو جزاء ذنبه . وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ﴾ [الشرح] أى : همك الذى أتعبك وهو هم البحث عن الدين الحق ، فلما جاءته الرسالة زالت هموم نفسه وبدأ يعمل للإسلام فى نشاط وهمة لا يحمل إلا هم أمته ، أو يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حبك لله وخوفك إياه ، وقد وضعه عنك وغفره لك . قال تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] فالرسول ﷺ يرى الهفوات الصغيرة ذنوباً كبيرة فوضعها الله عنه بالمغفرة . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٣].

(٣) قال تعالى عن الذين يضلون غيرهم : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] ، وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت] والأثقال هى الذنوب ، ويحملون أثقال من أضلوهم فاتبعوهم فى ضلالهم [راجع : القاموس القويم ، مادة ثقل].

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القضية ، فيتحدث عن الفئة التى ضلت فى ذاتها ويقول:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ [1] وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾
[البقرة]

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلة فيقول:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً [2] وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾

والزمان بالنسبة للخلق ثلاثة أقسام: حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ [3] ، وساعة يبعثون هى الزمن الثالث.

---

(١) الأماني: جمع أمنية، وهى ما يرغب الإنسان فيه من الخير، فعلمهم من الكتاب ليس أماني كاذبة فى دخول الجنة دون أن يصدقها عملهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (١٢٣) ﴾[النساء] . [القاموس القويم ٢/ ٢٤١] بزيادة يقتضيها المقام.

(٢) اللعنة: اسم مرة ، وتستعمل بمعنى المصدر، قال تعالى: ﴿ .. أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود] أى: سخطه وغضبه وطرده مُنصَبٌ على الظالمين. [القاموس القويم].

(٣) البرزخ: الحاجز بين الشيئين. قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن] أى: بين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلا منهما فى مجراه؛ فلا يبغى ولا يطغى على الآخر. وقال تعالى: ﴿ .. وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] أى: حاجز يحجزهم عن الرجوع إلى الدنيا حتى يوم القيامة وتسمى فترة القبور فترة البرزخ، من مات فقد دخل البرزخ إلى يوم القيامة [القاموس القويم].

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء [1] ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هى الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

هذه هى الأزمنة الثلاثة- حياة، وبرزخ، وبعث-وكل وقت منها له ظرف .

ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه فى البحر :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [2] وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر]

وفى هذا دليل على عرض الجزاء فى البرزخ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار»[3]

إذن: فهنا زمنان: زمن عرضهم على النار غدواً وعشياً ، وزمن دخولهم النار .

---

(١) قال تعالى عن عذاب آل فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] فهذا عرض للجزاء عليهم، وهو فى حد ذاته عذاب .

(٢) الغدو: الدخول فى الغداة ، أو السير أول النهار . قال تعالى: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] أى: مدة سير الرياح فى وقت الغداة تقطعها القوافل فى شهر .
ويقابل الغدو بالعشى وبالآصال، قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا .. (٤٦) ﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ .. يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور] . [القاموس القويم] .

(٣) أخرجه الترمذى والطبرانى فى الكبير عن أبى سعيد ، والطبرانى فى الكبير عن أبى هريرة وسندهما ضعيف . وانظر مجمع الزوائد (٣/ ٤٦) ومسند الفردوس للديلمى (٣/ ٢٣١) .

وهذا يثبت عذاب البرزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار[1] ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .

وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب فى الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ .. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

وكلمة «ألا»[2] هى أداة تنبيه - كما قلنا من قبل - تنبه السامع إلى أهمية ما يلقيه المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذى يقود زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتى كلمة «ألا» كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام .

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذاباً فى الدنيا بالريح العقيم[3] ، ثم أتبعوا لعنة فى البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات ؛ فهذه لعنات ثلاث .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بحيثية هذه اللعنات مخافة أن يرق قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فبيَّن بكلمة «ألا» أى : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم .

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٧٩) ومسلم فى صحيحه (٢٨٦٦) .

(٢) ألا : أداة استفتاح وهى مركبة من همزة الاستفهام ومن لا النافية ، وتكون للتنبيه فتدل على تحقق ما بعدها وتقريره كقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ .. (١٣) ﴾ [البقرة] وتكون للعرض والتحضيض والحث ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور] [القاموس القويم ١/ ٢٧] .

(٣) ذلك كان عذاب قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات] والريح العقيم هى التى لا خير فيها - بل هى تهلك وتدمر . وذلك وصف على المجاز بالاختصار [القاموس القويم صـ ٣١ جـ ٢] .

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عليها زمن ، وكفرهم بربهم حدث فى الدنيا ، وهو كفر فى القمة ؛ لذلك نالوا عقاباً فى الدنيا.

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية ؛ لذلك تواصل لعنهم فى البرزخ ، ثم تأتى لهم لعنة الآخرة .

وهم لم يكفروا بنعمة ربهم، بل كفروا بربهم.

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التى لا تعد ولا تحصى ؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهى الجزاء العادل.

وقد أوضح لهم هود عليه السلام:

﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا [1] إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

أى: أن الحق سبحانه عادل .

وأنت حين تسمع جريمتهم ؛ تنفعل وتطلب أقصى العقاب لهم ؛ ولذلك يأتى قول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

فأنت لا تكتفى بلعنتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى.

ولسائل أن يقول: ولماذا يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

---

(١) الناصية : ما يبرز من الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً ناصية – وأخذ بناصية فلان : قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه ، قال تعالى : ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ..(٥٦)﴾ [هود] مسيطر عليها ومالك أمرها متصرف فيها . [القاموس القويم بتصرف صـ ٢٧٠ حـ ٢] .

ونقول: لقد قال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن:

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) ﴾ [النجم]

وهذا يوضح لنا أن «عاداً» كانت اثنتين: عاداً الأولى، وهم قوم عاشوا وضَلُّوا فأهلكهم الله، وهناك عاد الثانية[١].

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ[٢] أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم[٣] مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[٤] فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾

---

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) أنهما عادان، عاد الأولى، وعاد الأخرى، فهؤلاء - أى: قوم هود - هم الأولى، وأما الأخرى فهى أقوام عاشت فى جزيرة العرب. وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر]، ويقول (٣/ ٢٧٥٢): «كان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء. وكانت عاد فيما روى ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون رمال عالج، وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت فيما روى بنواحى حضر موت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام، ولحق هود - حين أهلك قومه - بمن آمن معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا».

(٢) ثمود: قبيلة من العرب الأول. ويقال: إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح. [راجع: لسان العرب - مادة ثمد].

(٣) أنشأ الشيء: أوجده وأحدثه وخلقه. وأنشأ الله السحاب: كوَّنه وأظهره فى السماء. قال تعالى: ﴿ .. وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) ﴾ [الرعد] أى: يكوِّن السحب الممتلئة بالماء. وأنشأكم من الأرض: خلقكم منها. [القاموس القويم] بتصرف.

(٤) عمر فلان الدار: بناها، وعمر القوم المكان: سكنوه، فهو معمور. وعمرت الدار بأهلها؛ فهى عامرة. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .. (١٨) ﴾ [التوبة] أى: يقيم فيها الصلاة ويجلس فيها للعلم ويمكث للاعتكاف، ويبنيها ويحافظ عليها؛ فكل ذلك من عمارتها.
وقوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .. (١٩) ﴾ [التوبة] أى: أن عمارة المسجد بغير إيمان لا وزن لها؛ فالإيمان هو أساس لقبول الأعمال. واستعمره فى المكان: جعله يعمره. قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]. [القاموس القويم ٢/ ٣٥].

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه يبيِّن لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحداً منهم هو صالح عليه السلام.

وجاء الحق سبحانه بلفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾ ليبين العلاقة التى بين صالح - عليه السلام - وقومه، فهو قد نشأ بينهم، وعرفوه وخبروه، فإذا ما جاءهم بدعوة - وقد لمسوا صدقه- فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج.

وناداهم صالح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ، وهى من القيام، يعنى: يا من تقومون للأمور. والذى يقوم على الأمر عادة هم الرجال؛ لأن أمر النساء مستور - دائماً - فى طى الرجال، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتى فيه ذكر المرأة، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال، والنساء مطويات على الستر فى ظل الرجال، والرجل يشقى ويكدح، والمرأة تدير حياة السُّكْنى وتربية الأولاد.

ونحن نجد من النساء ومن الرجال من يتراضون عند الزواج على ألا تخرج المرأة للعمل.

إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها، ولكن إن وجدت من يقوم عليها، فلماذا لا تلتفت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجال، وهو رعاية الأسرة؟

وكذلك نجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب، ونقول لمن يفعل ذلك: إذا كنت لم تنتقد التهتك فى الملابس، ووَصَفْتَهُ بأنه «حرية»، فلماذا تتدخل فى أمر الحجاب، ولا تعتبره «حرية» أيضاً.

ونعود إلى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ..(٦١)﴾ والعبادة تقتضى تلقى أوامر الإله المعبود بـ«افعل» و «لا تفعل»[1] فى كل حركة من حركات الحياة.

فكان أول شىء طلبه صالح من قومه ثمود ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد، ولا يسع أحداً مخالفته.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ..(٦١)﴾ [هود]

تقرير واقع لا تستطيعون تغييره، فليس لكم إله آخر غير الله، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى.

ويقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شىء، ويقال: أنشأ، أى: أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشىء آخر.

لذلك لا نقول لمن اخترع: إنه «أنشأ» لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه؛ فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال، وبخبرة تجارب صنعها من سبقوه، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى ينشىء من عدم.

والوجود من العدم قسمان: قسم أوجدته باستعانة بموجود، وقسم أوجدته من عدم محض، وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

---

(١) إن مدار التكليف فى حياة الناس لا يخرج عن الأمر والنهى، فمن الأمر نأخذ الفرض والسنة والمستحب والمندوب والتطوع والواجب والحلال، وكل ما يرضى الله لسعادة البشرية. والنهى: يكون عن الحرام والمكروه. وحركة الحياة منوطة بافعل كأمر، ولا تفعل كنهى، وفى النهى عند الاستجابة سعادة، وعند المخالفة شقاء.

والحق سبحانه جلَّت مشيئته فى الإنشاء ، فهو ينشىء الإنسان من التقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض ، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمنىُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذى هو خلاصة الأغذية وهى تأتى من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض ، أو أبقيتها فى ذريته ، فكل شىء مَرَدُّه إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

نجد فيه كلمة ﴿ اسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها للطلب[2] ، وهكذا يكون معنى كلمة «استعمر» هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التى تحتل بلاداً أخرى : «دول الاستعمار» .

أقول : إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعنى أنهم يرغبون فى عمارة الأرض ، ولكنهم فى حقيقة الأمر كانوا يخربون فى الأرض ؛ ولذلك كان يجب أن تسمى «دول الاستخراب» .

---

(١) استعمركم فيها : أذن لكم فى عمارتها واستخراج قومكم منها وجعلكم عمارها . [راجع اللسان : مادة عمر] .

(٢) قال القاضى أبو بكر بن العربى : تأتى كلمة استفعل فى لسان العرب على معان :
- منها : استفعل ، بمعنى طلب الفعل كقوله : استحملته أى : طلبت منه حملاناً .
- وبمعنى : اعتقد ، كقولهم : استسهلت هذا الأمر ، أى : اعتقدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً . واستعظمته أى : اعتقدته عظيماً ووجدته .
- وبمعنى : أصبت ، كقولهم : استجدته أى : أصبته جيداً .
- ومنها بمعنى : فعل ، كقوله : قر فى المكان واستقر . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٥) .

و﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيدوه صلاحاً.

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأوانى المستطرقة [1] ، فقد كان الناس يشربون الماء من الترع ، ثم تم اختراع كيفية تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأوانى المستطرقة ، فاستغلها الناس فى بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواسير تدخل لكل بيت.

وهكذا تصل المياه النقية لكل منزل، وهكذا يزداد فى الأمر الصالح صلاحاً.

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فنحن نزيد الأرض رقعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة فى عدد السكان.

وما دام عدد السكان فى زيادة فلا بد من زيادة رقعة الأرض بالاستصلاح ؛ لأن الأزمة التى نعانى منها الآن ، هى نتيجة للغفلة التى مرت علينا ، فزاد التكاثر عن الاستصلاح ، وكان الواجب يقتضى أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة فى السكان.

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلَّى على الخَلْق بصفات من صفاته ، فالقوىُّ يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ، ويَهَبُ الخلق من حكمته حكمة ، ومن قبضه قبضاً ، ومن بسطه بسطاً ، ومن غناه غنىً ؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا.

---

(١) الأوانى المستطرقة: عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد. [المعجم الوسيط].

والدليل على ذلك أن القوى فينا يصير إلى ضعف ، والغنى منا قد يصيبه الفقر ؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا ، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لنفعل.

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل ؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه ، فإن أكل اليوم تمراً - على سبيل المثال - فعليه أن يتذكر أن الذى زرع له النخلة [1] هو من سبقه ، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين - وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً - وليستفيد بها من يأتى من بعده.

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه «ثمود» فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود]

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة [2].

فماذا كان الرد من قوم ثمود ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم:

---

(١) النخل شجر الرطب والتمر والبلح ، واحده نخلة . وجمع النخلة نخيل قال تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة].

(٢) عن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله : «يا بن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا بن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٤٠) وقال : «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٢٢) من حديث أبى ذر الغفارى.

﴿ قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا(١) قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَىٰنَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٢) (٦٢) ﴾

كانوا ينظرون إلى صالح - عليه السلام - بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره .

والمرجوُّ هو الإنسان المؤمَّل فيه الخير ، ذكاءً ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية خصلة من الخصال التى تبشر بأن له مستقبلاً حسناً .

ولكن ما إن دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله سبحانه وتعالى أعلنوا أنه - بتلك الدعوة - إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه .

وقد أوضح لهم صالح - عليه السلام - ما أوضحه الرسل من قبله ومن بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس آلهة تُعْبد هو أمر خاطىء ؛ لأن العبادة تقتضى أوامر ونواهى ينزل بها منهج ؛ يتبعه من يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج .

وأضاف قوم ثمود:

﴿ ..وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾ [هود]

---

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ..(٦٢) ﴾ [هود] أى : كنا نرجو أن تكون فينا سيداً . [مختصر تفسير الطبرى] و[القاموس القويم] .
قيل : كان صالح يصيب آلهتهم ويشنؤها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك . انظر القرطبى (٤/ ٣٣٧٧) .

(٢) أرابه : أوصله إلى الشك وأدخل الشك فى نفسه ، واسم الفاعل : مريب . وقوله تعالى : ﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) ﴾ [هود] على سبيل التوكيد ، أى : فى شك موصل إلى شك . وكذلك قوله تعالى على لسان قوم ثمود : ﴿ .. وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾ [هود] . وأراب الرجل فهو مريب : صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس . قال تعالى : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ﴾ [ق] . [القاموس القويم] .

والشك هو استواء الطرفين: النفى والإثبات.

إذن: فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هى عبادة صادقة، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون فى أمر تلك العبادة؛ وهذا يُظهر أن خصال الخير فى صالح عليه السلام جعلتهم يترددون فى أمر عبادتهم (١).

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لثمود:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ (٢) إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ (٣) مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً (٤) فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٥) ﴿٦٣﴾ ﴾

---

(١) وأيضاً فإنهم فى شك من دعوة صالح عليه السلام إلى عبادة إله واحد، فخطابهم هنا موجه لصالح (مما تدعونا) أى: يا صالح. كانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، أرسل إليها أخوهم صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فسألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنن به وليتبعنه، فقام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت الصخرة وانشقت عن ناقة يتحرك جنينها بين جنبيها وكانت الناقة تشرب من البئر يوماً وتتركه لهم يوماً وكانوا يشربون من حليبها ويملأون ما يشاءون من أوعيتهم، ولكن تسعة نفر اتفقوا على قتلها، فعقروها، فنزل بهم عقاب الله بعد ثلاثة أيام. [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٧ - ٢٢٩] باختصار شديد.

(٢) أرأيتم: أى: أخبرونى. [كلمات القرآن].

(٣) بينة: يقين وبرهان وبصيرة. [كلمات القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف]. وهى الحجة الواضحة الموضحة للحق التى تجعل الحق ظاهراً للعيان.

(٤) رحمة: أى: نبوة. [تفسير الجلالين]. وقد سبق قول نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود] قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٣): «أى: نبوة ورسالة. عن ابن عباس، وهى رحمة على الخلق. وقيل: الهداية إلى الله بالبراهين. وقيل: الإيمان والإسلام».

(٥) خسّره: جعله يخسر، وخسره تخسيراً: أبعده عن الخير، وأهلكه. وقوله تعالى: ﴿ .. فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ [هود] أى: غير إبعاد عن الخير، أو غير إهلاك بعذاب الله [القاموس القويم] وجاء فى تفسير الجلالين: (غير تخسير) أى: غير تضليل. وجاء فى مختصر تفسير الطبرى ﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ يقول: ما تزدادون أنتم إلا خساراً، يخسركم حظوظكم من رحمة الله عز وجل.

وكأن صالحاً قد ارتضاهم حكماً فقال: أخبرونى إذا كنت أنا على بينة من ربى ويقين بأنه أرسلنى وأيَّدنى ، وأنا إن خدعت الناس جميعاً فلن أخدع نفسى ، فهل أترك ما أكرمنى به ربى وأنزل إلىَّ منهجاً أدعوكم إليه ؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم؟ هل أترك يقينى بأنه أرسلنى بهذه الرسالة ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ..(٦٣)﴾ وهى النبوة ؟

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ..(٦٣)﴾ [هود]

وساعة يستفهم إنسان عن شىء فى مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شىء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام:

﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال. فهل التخسير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه ؟

إن ثراء الأسلوب القرآنى هنا يوضح لنا هذه المعانى كلها ، فإن أطاعهم صالح - عليه السلام - وعصى ربه ، فهو قد أزاد فى خسارته ، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهديين ، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى.

إذن: فالتخسير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح - عليه السلام - وإما أن يكون واقعاً منهم على صالح.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ[1] ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ[2] فَذَرُوهَا[3] تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ[4] فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) ﴾

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له: إن كنت نبياً فأخرج لنا ناقة من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة[5] ما ، وهم قوم كانوا نابغين فى نحت بيوتهم فى الجبال. ومن يَزُرْ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة ، يمكنه أن يشاهد مدائن صالح ، وهى منحوتة فى الجبال.

وقد قال فيهم الحق سبحانه:

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[6] (١٤٩) ﴾ [الشعراء]

---

(١) الناقة: أنثى الجمل، ونسبت ناقة صالح لله، لأنها ناقة فقراء الله تسقيهم لبنها، أو لأنها منذورة لله وإن الله حاميها وراعيها، أو لأنها ناقة رسول الله، ونسبت لله تشريفاً لها. [القاموس القويم].

(٢) آية: معجزة دالة على صدق نبوة صالح عليه السلام. [كلمات القرآن].

(٣) ذروها: دعوها أو اتركوها. وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا المضارع والأمر؛ فمن المضارع قوله تعالى: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٢٧) ﴾ [الأعراف] وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [نوح] أي: لا تتركن آلهتكم. ومن الأمر قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) ﴾ [المدثر] أي: اتركني أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن، وهو أسلوب تهديد ووعيد. وقوله تعالى: ﴿ .. ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) ﴾ [التوبة] أي: اتركنا. [القاموس القويم] بتصرف.

وجاء فى مختصر تفسير الطبرى: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ [هود] أي: اتركوها تأكل من أرض الله، ليس عليكم رزقها ولا مؤونتها.

(٤) ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. (٦٤) ﴾ أى: لا تقتلوها ولا تنالوها بعقر. [مختصر تفسير الطبرى].

(٥) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٣٧٨): «قيل: أخرجها من صخرة صماء منفردة فى ناحية الحجر يقال لها: الكاثبة».

(٦) فَرِهَ: أشر وبطر فهو فَرِهٌ، وفره فراهة وفروهة: حذق ومهر ونشط وخف فهو فارهٌ. وقُرِىء بهما قوله تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء] أى: حاذقين نشطين، وقرىء (فرهين) أى: بطرين أشرين. [القاموس القويم].

هم - إذن - قد حددوا الآية ، وهى خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهى حامل.

وبعد أن وُجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطيقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام:

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ [هود]

وساعة تسمع شيئاً مضافاً إلى الله تعالى ، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه.

مثلما نقول: «بيت الله» ، وهذا القول إن أُطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه: «بيت الله» فنحن نبنى عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكرت لتكون مُصَلّى ، ولا يُزاوَل فيها أى عمل آخر.

هكذا تكون الكعبة هى بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هى بيوت لله باختيار خَلْق الله .

ولذلك فبيت الله - باختيار الله - هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن: فإن أضيف شىء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ..(٦٤) ﴾ وهى ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو.

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشىء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه.

ومثال ذلك: ابن أبى لهب [1] ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله ﷺ وحين اشتد عناد أبى لهب للرسول ﷺ ، قال أبو لهب لابنه: طلق بنت

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال: لهب، عتبة، عتيبة. ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٣٨) وقال أيضاً: كانت أم كلثوم بنت رسول الله تحت عتيبة بن أبى لهب، وكانت رقية تحت أخيه عتبة بن أبى لهب.

محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الازدراء [١] ، فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال : «أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه [٢]» .

فقال أبو لهب : إنى لأتوجس شراً من دعوة محمد .

ثم سافر ابن أبى لهب مع بعض قومه فى رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً فى وسط رحال الركب كله خوفاً على ابنه من دعوة رسول الله ﷺ ، وإذا بأسد يقفز من الرحال ويأكل الولد ، فهنا نسب رسول الله ﷺ الأمر إلى الله فقال : «أكلك كلب من كلاب الله» فكان كلب الله أسداً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يوضح لهم صالح عليه السلام : هذه الناقة هى الآية التى طلبتموها وقد جاءت من الصخر .

وكان يقدر أن يأتى لهم بالجنس الأرقى من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التى طلبوها وهى من جنس الحيوان .

ونحن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة والفكر فيصير إنساناً .

---

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل (تبت يدا أبى لهب) قال أبو لهب لابنيه عتيبة وعتبة : رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ، وسأل النبى ﷺ عتبة طلاق رقية ، وسألته رقية ذلك وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية - وهى حمالة الحطب : طلقها يا بنى فإنها قد صبت فطلقها . وطلق عتيبة أم كلثوم ، وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ : «أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه» . دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٩) وعزاه الطبرانى مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف ، وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسنه ابن حجر فى الفتح (٤/ ٣٩) .

(٢) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وما علمتم من الجوارح مكلبين .. ④ ﴾ [المائدة] ، فقد دخل فى هذا : الفهد ، والبازى ، والصقر ، والشاهين ، وجميع أنواع الجوارح» [انظر : اللسان مادة : كلب] وانظر فتح البارى (٤/ ٣٩) .

وكان من الممكن أن يأتى لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها ؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل فى الوقت نفسه.

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها ؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها. وقال لهم:

﴿ .. فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) ﴾ [هود]

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل فى أرض الله ، وإن مسّوها [1] بسوء ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر.

إذن: فلا بد أن يأتى العذاب القريب إن هم مسّوها.

وهم قد مسّوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية:

﴿ فَعَقَرُوهَا [2] فَقَالَ تَمَتَّعُوا [3] فِى دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ [4] (٦٥) ﴾

---

(١) المس : الجنون على تخيل أن الجن مسته كقوله تعالى : ﴿ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس .. (٢٧٥) ﴾ [البقرة] أى : المصروع الذى لا يعى مسه وماسّه مماسة أو مساساً مس كل منهما الآخر مفاعلة من الجانبين وتماس الزوجان تلاقت بشراتهما ومن جلد كل منهما جلد الآخر ، ومسه من باب فرح مسّاً أجرى يده عليه من غير حائل ومسته النار أصابته ومسّه المرض : أصابه على إعجاز ، وقوله تعالى: ﴿ لا يمسه إلا المطهرون (٧٩) ﴾ [الواقعة] أى : لا يمسك بالمصحف إلا الطاهرون من الحدث الأكبر . [القاموس القويم بتصرف صـ ٢٢٦ حـ ٢] .

(٢) العقْر : أصل كل شىء ، وعقرته : أصبت عقره ، كقوله تعالى : ﴿ فعقروها ..(٦٥) ﴾ [هود] أى : أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . [القاموس القويم].

(٣) تمتع واستمتع بمعنى واحد . ومتع بالشىء : انتفع به . والمتاع : مصدر يسمى به الشىء المنتفع به ، والمتاع : كل ما ينتفع به من طعام وأثاث وأداة ومال . وقال تعالى: ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٣) ﴾ [الحجر] وقال تعالى : ﴿ .. والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم (١٢) ﴾ [محمد] . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) وعد غير مكذوب : أى : وعد صادق واقع لا محالة ؛ وهو من قبيل تأكيد الشىء بنفى نقيضه .

وجلسوا فى منازلهم ثلاثة أيام [1] ثم جاءهم العذاب.

ولقائل أن يقول: ولمَ الإمهال بثلاثة أيام؟

ونقول: إن العذاب إذا جاء فالألم الحسِّى ينقطع من المعذَّب، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا فى ذلك الألم طوال تلك المُدَّة حتى يتألموا حسِّيًا، وكل يوم يمرُّ عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذى قال فيه الله تعالى:

﴿.. وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾ [هود]

الحق سبحانه هو الذى يَعِدُ، وهو القادر على إنفاذ الوعد، ولا تقوم قوة أمامه؛ لذلك فهو وعد صادق غير مكذوب.

على عكس الإنسان منا حين يَعِدُ بشىء، فمن الممكن أن يأتى وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع.

لذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الكهف]

لأنك إن قلت: «أفعل ذلك غداً»، وتعد إنساناً بلقائه لكذا وكذا؛ فقل: «إن شاء الله»؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزمن يأتى، وإنما يجب أن يردف من يرتب الأمور «بمشيئة القوى القادر» حتى إذا لم ينجز ما وعد به؛ يكون قد خرج عن الكذب، لأن الله تعالى لم يشأ، لأن الإنسان إذا وعد، فهو لا يعتمد على إرادته، ولكن مشيئة الله تعالى تعلو كل شىء.

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٩) أن عقرها كان يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت. وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما قاموا ثلاثة أيام، لأن الفصيل رغا ثلاثاً، فاصفرت ألوانهم فى اليوم الأول، ثم احمرت فى الثانى، ثم اسودت فى الثالث. وهلكوا فى الرابع. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٩).

والفعـل - كما نعـلم - يقـتضى فاعـلاً ، ومفعولاً ، وزمناً ، وسبباً دافعـاً ، وقـدرة تمـكّن الإنسان من الفـعل ، فهل يملـك أحدٌ شيئاً من كل هذا ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من يعده أن يوجد غـداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً للّقاء ؛ فربما انتهى السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على إنفاذ السبب.

إذن: فإذا قال: «أفعل ذلك غداً مع فلان» ؛ يكون قد جازف وتكلم فى شىء لا يملك عنصراً واحـداً من عناصره ، فـقل: «إن شاء الله» ، أى: أنك تستعين بمشيئة من يملك كل هذه العناصر.

ويعطى الحق سبحانه فى كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على خلقه فهو سبحانه القائل:

﴿ فَعَقَرُوهَا [1] فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

وقوله: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً فى مكان يختلف عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كافرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد من سفر ، فتتبعهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما نزل على المكين منهم فى أى مكان.

---

(١) العقر : أصل كل شىء . وعقرته - من باب نصر : أصبتم عقره كقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ..(٧٧) ﴾ [الأعراف] أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . وعقرت المرأة : أصيبت بالعقم ، فهى لا تلد فهى عاقر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. (٥) ﴾ [مريم] .

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه «أبو رغال»[(١)]، وكان يحج إلى بيت الله، فلم يتبعه عذابه فى بيت الله؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمِّن من دخل بيته، فهو سبحانه وتعالى أوْلى بأن يؤمِّن من دخل البيت الحرام[(٢)]، وظل الحجر الذى سيُضرب به، أو الصيحة التى كان عليها أن تأخذه، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه.. وعَمَّ العذابُ الكافرين من قوم صالح، وتتبع من فى الديار إلا هذا الرجل، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب[(٣)].

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذى عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يُؤمَّن إلى أن يخرج، وكانوا يُضيِّقون عليه، فلا يطعمه أحد، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج، فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام، ولتظل حرمة البيت الحرام مُصَانة.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال فى البيت الحرام، صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية.

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله بها مَنْ تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله، فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٢٠، ٥٦٧) وصحح إسناده. قال الهيثمى (٧/ ٥٠): رجال أحمد رجال الصحيح، قلت: هم أيضاً رجال الإسناد الأول.

(٢) يقول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا.. (٩٧)﴾ [آل عمران] أى: يكون آمناً مطمئناً لا يخاف على نفسه أو ماله، ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ.. (٦٧)﴾ [العنكبوت].

(٣) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٩) «أن جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق ويقال لها: الذريعة. وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلعت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع من شىء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت».

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضي زماناً ، ويقتضي مكاناً .

وكان العرب دائمي الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه أن يوجد مكان يحرم فيه القتال ؛ فخصَّ البيت الحرام بذلك ، وأراد سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال ؛ فكانت الأشهر الحرم ؛ لأن الحرب قد تكون سجالاً [1] بين الناس وتوقظ فيهم الحمية والأنفة [2] والعزة .

وكل واحد منهم يحب في ذاته أن ينتهي من الحرب ، ولكنه لا يحب أن يجبن أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من الزمان ومن المكان ، فحرم القتال في الأشهر الحرم .

وما إن تأتى الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء: لولا الأشهر الحرم لكنت قد أنزلت بخصمي الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليداري كبرياءه ؛ لأنه في أعماقه يتمنى انتهاء الحرب .

وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول مَنْ كان يحاربه : لو لم يدخل الحرم ؛ لأذقته عذاب الهزيمة .

وبمضيٍّ الزمان وبالمكث في المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما عشقوه فانتهوا من الحرب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾

(١) الحرب بينهم سجال: أي: نصرتها بينهم متداولة، مرة لهم، وأخرى عليهم. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) الأنفة: العزة والحمية والكرامة. [المعجم الوسيط] بتصرف.